رحلات فى ربوع الشام فى القرن الثامن عشر الهجرى :

٤ ـ اردان حلة الاحسان

فى الرحلة إلى جبل لبنان

لمصطفى البكرى الصديقى

(١٠٩٩ هـ — ١١٦٢ هـ — ١٦٨٧ م — ١٧٤٨ م)

للأستاذ أحمد سامح الخالدى

سنة ١٤١١ هـ وفيها قدم الرحالة المصرى الشيخ مصطفى أسعد اللقيمى إلى بيت المقدس :

« تمت علينا بركات سنة (١١٤٣ هـ) فعملنا عاشورا وتألفنا للسير إلى الزيارة(١) ، وتأهب للتوجه معنا جمع أخيار منهم الأخ الأمجد العديم الأنظار الشيخ أحمد المراغى سالف الأعصار ، والأخ محمد سعيد البصرى البار ، وزكريا الفسيبى السيار ، وجملة حضار وبتنا فى السيد (شمويل) ومن حماه كمن للأوكار طار ، وإن استقر منا للراحة فى بعض العمار قدار إلى بلدة (لد) المعمورة الجهات والأقطار ، بالمدرات المسرات المار من خطار ، واجتمعنا بصديقنا الفاضل المسعود الشيخ أبى السعود ، فأكرم وحيا ، وزرنا أخاه المرحوم الشيخ حسين رحمه الله ، وسرنا صباحاً إلى يازور ونزلنا داراً تعزى إذ تنسب الملاح وبتنا ليلة الخميس ببسط ما عليه مقيس ، وفى ذلك اليوم الجالب التعيس ، سادس عشر محرم توجه الأخ زكريا (نسيبه) ليغتسل فى البحر ، وما درى السباحة بقيس ، فغاب فيه روحاً وجسما عن العين ، وما ظهر إلا يوم الجمعة فكدر رائق وقت أنيس ، ثم انا استرجعناه ودفناه فى مقبرة الجامع الجديد التأسيس(١) ، وسرنا إلى الحرم(٢) نترحم على المفقود ونعملنا له ختمة قدها بمقيس ، وأهدينا له تهليلة جليلة ، وكان الحاج حسن المقلدى (الجيوسى) وقد علينا الاسكلة(٣) ، وأقمنا

(١) كانت هذه الزيارة سنوية إلى مقام على بن عليل على ساحل يافا .

(١) هى المقبرة شمالى سراى يافا الآن . والجامع الجديد بنى فى هذا القرن وقد وقف على تعميره الشيخ محمد الخليلى .

(٢) الحرم هو مقام سيدنا على ويعرف بالحرم .

(٣) هى الميناء ، والمقصود يافا .

للجامعة وهى تأخذ طلبتها من أبناء الأزهر وقد توحدت أو كادت البرامج بينها وبين كلية اللغة وتشرف وزارة المعارف على الامتحانات فى كلية اللغة .

أفما كان الأولى أن تضم دار العلوم للأزهر بدلاً من ضمها إلى كلية الآداب فالأزهر أمس بها رحما وأقرب صلة من الجامعة. ألم يكن فى ضمها للأزهر قضاء على المنافسة التى تتجدد بين حين وآخر واستتباب للأزهر بتقوية إحدى دعائمه وحفز للحكومات المختلفة على أن توليه الكثير من العناية لاعتمادها عليه فى تخريج معلم اللغة العربية التى قام بحراستها منذ ألف عام .

وأى شىء للأزهر بعد إنشاء قسم الشريعة ومعهد الفقه ؟ وهل عقم الأزهر أو استعصى على الإصلاح حتى يفكر أولو الأمر فى هذا الانشاء ؟ ولم لم يتجهوا إلى الأزهر ويشتركوا مع رجاله فى رسم خير الطرق لهذه الدراسات . وهل امتنع الأزهر ورجاله عن مشاركتهم ومدارسة الأمور حتى يرسموا لاصلاحه ما ينهض به لمجاراة العصر مع المحافظة على كيانه وطابعه . وأغلب الظن أن المراد بانشاء معهد للفقه الاسلامى هو العمل على سلب جزء آخر من اختصاص الأزهر حتى إذا ما استوى ذلك المعهد تقرر ضمه للجامعة أيضاً كما ضمت دار العلوم . وبذلك لا يبقى للأزهر من الاختصاص إلا ما يمس دراسة أصول الأديان وطرق الدعوة وهذا أمر هين . وليس بغريب أن نرى عما قريب اقتراحاً آخر بانشاء هذا القسم وضمه إلى كلية من كليات الجامعة، وبذلك يسلب الأزهر جميع اختصاصه ولا يبقى لوجوده أى مسوغ ما دامت الجامعة قد قامت برسالته فى فروع مختلفة. وأظن أن هذا تنفيذ لما رسمه الدكتور طه حسين بك فى كتابه مستقبل الثقافة من توحيد البرامج فى الابتدائى والثانوى والاستغناء عن الأزهر بانشاء قسم للاهوت وإلحاقه باحدى كليات الجامعة كما هو الحال فى جامعات الغرب وبخاصة فرنسا . وإذا لم يكن تنفيذ هذه السياسة سافراً فظاهر الخطوات المتقدمة توحى بأن العمل جار على تحقيقها إذا لم يتدارك رجال الأزهر الأمر بالعمل السريع على إصلاح الأزهر إصلاحاً عاماً شاملاً يتناول ما يتصل بالمعلم والطالب والكتاب .

(للكلام بقية)

محمد سمير أحمد الشال
مندوب الأزهر لتدريس الشريعة
بكلية المقاصد الاسلامية ببيروت

فى الزيارة ليلتين ، وودعنا وسرنا إلى أن دخلنا قرية المذكور (كور) ومنها تعلقت بنا حمى الربع لخالية الأجسور ، لسابق قضاء وقدر مسطور ، ودخلنا باباس المحروسة الطلول والدور ، وأقمنا ثلاثة أيام أنسها يسور فلا يفور ، وأتينا (جماعين) ونزلنا المحلة الفوقية ومنها عمدنا (الزاوية) ونزلنا منها إلى دير غسان لإلحاح الإخوان بها ووقفنا على تلك الآثار ، وفى الصحاح وغسان إسم ماء نزل عليه قوم من الأزد فنسبوا إليه ، منهم بنو جفنة ، رهط الملوك ، ويقال غسان إسم قبيلة . انتهى . وفى اب الألباب فى تحرير الأنساب للسيوطى ، الأزدى بفتح وسكون فمهملة إلى إزد شنوءة بن الغوث ... إلى إسماعيل وفى اللب ، الغسانى بالفتح والتشديد إلى غسان قبيلة من الإزد ، وجد غسان رأس الغسانية من الرجئة ، وبضم أوله إلى غسان بن جذام بطن من الصدف ، قال فيه الصدفى بفتحين وفاء إلى الصدف ، بكسر الدال قبيلة من حمير . انتهى .

وأهلها المقيمون فيها الآن ينتسبون إلى جدهم برغوث(١) ولذا لقبوا بالبراغثة ، وهم مشايخ بنى زيد الآن وجباة وقف الصخرة والخليل ، فى تلك الأوطان ، لكنهم بقلة الحكم وضعف ولاة الزمان جبوا لأنفسهم ، وأكلوا ما للوقفين استبان حتى مال منهما القبان ، إلى الخفا بعد العيان ، وتوجهنا إلى (عابود) بلدة سيد الأكوان الداخلة فى وقف الحرمين من غابر أوان ، ومنها ختمنا مقابلة (المرائس القدسية) المفصحة عن الدسائس النفسية بحضور إخوان فى واديها المصان وعدنا إلى الأوطان ، وسلمنا والد المفقود بما أمكن وبشرناه بحلوله جنة الأمان . وأرسلت كتاباً إلى الشيخ محمد المكتبى ، وأرسلت آخر إلى الأخ الأمجد الشيخ أحمد نجل سمية خطيب الخسروية . وكتبت آخر للأخ الحميم عبد الكريم الشرابانى ، وقلت :

سر للمنـــازل يا نديمى ... نسق من الخمر القديم (الخ)

ولما دخل شهر ربيع الأول ورد علينا من صديقنا الروحانى الشيخ مصطفى أسعد اللقيمى كتاب يطلب فيه التدانى من حينا القدمى ، ويتشوق للقا النفسى الحسى الأركانى ، وطلب كتابة كتاب لوالده نترجى منه الإذن بالسير فأجبته وصدرته بقولى :

راح الحشا والروح والريحان ... وصل سما روحاً مع الريحان

وكتبت له ، ولوالده ، طالباً الإذن للولد بالزيارة وأن يعود إن شاء الله فى أقرب مدة .

« وقدم علينا الديار عقب هذا المكتوب الصديق القديم الشيخ داود الدمياطى وسألناه عن المكاتبة فأخبر بوصولها ، وأن الأخ المكاتب عن قريب يجوب ، وفى هذه الديار يتملى بالأنوار ولوطنه يؤوب ، ولما عزم على السير إلى الشام ، طلب أجازة ، فكتبت له . ثم ورد علينا من الصديق الشيخ مصطفى كتاب يعلم بقرب الجواز . فأرسلت له كتاباً وقلت :

سلام على أهل وادى الهوى ... أناس فؤادى إليهم هوى (الخ)

وأرسلت للصديق السيد أحمد الأدهمى نجل السيد صالح الطرابلسى الشمى ، جواباً عن كتابين أرسلهما إلى بحال همى والمذكور له صحبة قديمة محفوظ عهدها أكرمى ، فى بلده ، وأخرى جديدة تؤذن بمدد نمى فى دمياط لما أتيتها والفؤاد محتمى فقلت .

لفتى الصبابة يا سعاد ترحمى ... مضنى لغير جمالك لا ينتمى (الخ)

وجواب الكتاب الثانى ، صدرته بقولى .

أيها النفس باختيارك موتى ... واخرجى عن ملابس الناسوت

الحمى تفترك الشيخ ، ويفتظر مولودا تجديدا :

« ولما تمادت الحمى فى غيها على ، وزادنى كرب عيها الواصل إلى ، ولم يفد فيها بدء ساعة دوا ، ولا أنجع قلم له وصف ارتوى ، ورد على الفؤاد وارد ، وهو امتداح جناب الخليفة السيد المعمود سيدى داود ، فقلت غب زيارته يوم الخميس المشهود .

إن قلبى نحو الخظائر نودى ... حين فوجى بلمع نور وبودى

إلى أن قال .

فلهذا ناديت والجسم أضحى ... ضمن نار كالنار ذات الوقود

يا حبيبى داود كن لى شفيعاً ... إن دائى قد كاد يفنى وجودى

وقد استجاب الله دعاء الشيخ ثم يقول :

وكان أواخر ذى القعدة الحرام من سنة (١١٤٢ هـ) تبين حمل وفى ذى الحجة عاد كاليقين ، وفى محرم اتضح ذلك الابهام ، وكانت البنية السعيدة الجنانية الفريدة ، بلغت عاماً ونصفاً أو أقل بأيام ، فخفنا عليها الغيلة ، فحميناها بالفطام .

وكنت كثيراً ما أسمع قصيدة شيخنا جناب الشيخ عبد الغنى (النابلسى) التى مطلعها البسام :

(١) هم آل البرغوثى شيوخ بنى زيد ، وبلدتهم دير غسانة ، وهم منتشرون فى قرى بيت رعما ، وفدارة ، وكفر عين ، ودير نظام الخ .

يا أشرف الرســل ضاقت فأرسل الفرجا
فإننى فيـــك قـد أملت ألف رجا

فأحببت أن أقتدى بهذا الولى فقلت :

يا سيد الخلق إن القلب مبتهجا أضحى بحبك للتقريب منتهجا

المولود الجديد محمد كمال الدين :

ولما هل هلال شعبان المبارك ، ومضى منه ثلاث ليال ، ولد الولد المحمود محمد كمال الدين وكنيته أبا الفتوح ، منح الرفد التام السعيد إن شاء الله تعالى وتبارك ، أنشأه الله نشوء عبد الله ابن المبارك .

وعندما دخل شهر الصيام كنت أبيض الجزء الثانى من (شرح الورد السحرى) . فنجز فى يوم الاثنين ختام العشر الثانى من شهر رمضان سنة ١١٤٣ هـ .

قدوم الشيخ مصطفى أسعد اللقيمى الرحيابى الرحالة :

وحين دخل العيد الصغير ، ومضى منه يوم أول وثانى وثالث توجهت لزيارة سيدى داود ، وبت فى جوار الخليفة داود ، مع أنفار أمنوا العار كل خيفة ، وذلك فى أواخر القعدة ، لداع دعا للمبيت فى تلك الخيام ، وفيـه قدم الأخ الشيخ مصطفى أسعد اللقيمى ، ولما تلاقينا معه بسطنا بساط المباسطة ، واحتفلنا واجتلينا عرائس الأنس وما بيننا واسطة ، فى بيتنا المعمور . ولما أخذ وانتسب وأقبل ما احتجب أقام فى خلوة حرمية واستقام فى جلوة كرمية ، مشمراً ذيل الاجتهاد ، معمراً اللب بالاستمداد . وكنت فى أواسط شوال المبارك ، شرعت فى عمارة دارنا الفوقية فتم منها المراد ، ونزلت أشطح معه فى السطح الحرى ، وتارة أسبح ناحية المهد فى يم البسط البهمى ، وما برح يتاقى ويستقى سلاف الأسلاف ويسقى ويأتى النزل مجداً لم يهزل ، فنحيك معه ثوب المؤانسة ونتزل ، ونطلب له من ربه الجميل عطاء يجزل بكل بر جميل .

وصف الشيخ مصطفى أسعد اللقيمي لقاءه الشيخ البكرى والاجتماع به :

وإننا نرك الآن الشيخ اللقيمى الحسنى بسط بن غانم المقدسى السعدى الخرجى يصف لنا فى رحلته (كتاب سواطع الأنس برحلتى لوادى القدس سنة ١١٤٣ هـ[1]) إجتماعه بالشيخ البكرى ببيت المقدس قال « ثم دخلنا المدينة من باب الخليل ، وجاء الأنس بالسعد لنا دليل ، فنزلنا بمنزل قطب دائرة الأفلاك الحسنية ، واسطة عقد العصابة الهاشمية ، خلاصة السادة الأشراف ، وصفوة بنى عبد مناف ، من قال بحسن سيرته النجوم الزواهر ، وبجميل طلعته البدور النواضر ، الراسخ فى العلم الإلهى ، المكاشف عن أسرار الحقائق كما هى أستاذ كل أستاذ وملاذ كل ملاذ ، مولانا السيد مصطفى البكرى الصديقى قدس الله سره الشريف ، ولسكرنا من كأس خمره الرحيق فبرؤيته وردت على واردات السرور من كل جانب ، وأيقنت ببلوغ المآرب والمطالب ، وعند ذلك جاد الجفن بالدمع وسمح ، لما اعتراه من المسرة والفرح ، فتلقانى بوجه طلق بسام ، وعذوبة لفظ تذرى باللآلىء فى النظام ، فان أستاذنا المذكور قدس الله سره الشريف ، يتظاهر الجمال فى أرفع محل منيف ، مع لطف بلغ غاية الكمال ، وحسن خلق وفضل وإفضال ، فوالنجم إذا هوى ، إنه لجميع المحاسن قد حوى ، وهو الذى يقتدى به المقتدون ، وبسمته يهتدى المهتدون ، وبمحاسن الصفات تحلى ، رفع الله له فى العلا محلا .

مولى تحلى بالفضائل والتقى وأشاد من طرق الحقيقة ممهدا
ودعى إلى النهج القويم مسلكا لطريقه منها شهدنا المشهدا

انتهى كلام اللقيمى » .

وفاة الشيخ عبد الغنى النابلسى :

« وفى أوائل شوال ورد خبر وفاة شيخنا الهمام الفضال بركة الديار وشامة الشام جناب الشيخ عبد الغنى القدام فشرعت فى عمل ترجمة مختصرة على المكاتبات التى كتبتها لجنابه مقتصرة ، وسميتها : « الفتح الطرى الحبى فى بعض مآثر شيخنا الشيخ عبد الغنى » ، وعملت فى آخرها مرثية مطلعها السنى المختوم بالاكؤس الأنسية :

---

(١) رحلة مخطوطة نفيسة ، نشرت ملخصها فى كتابى رحلات إلى ديار الشام ، ولدى الكتوات آل مكى فى المجدل نسخة اعتمدت عليها . وقد جاء اللقيمى من مصر عبر الصحراء إلى القدس ومنها إلى دمشق فصيدا فنابلس وعاد إلى مصر .

ســـلام على عيش صب هنى لقد سار مذ سار بدر سنى
ومـــذ مات بالحى أرخ وهم لقد عاش بالحق عيشـــا هنى

وما زال الأخ اللقيمى المقدم فى مدة إقامته التى فيها يتقدم يستعمل أوراداً فيجد أمداداً ويفتح أبواباً شداداً ، فيمنح أحوالا سداداً ، إلى أن قرب عيد الأضحى ، فلقنته الإسم الثانى فصحى غب ، ماحباً انحى ، ونحا التقريب لاحيا اللاحى فرحاً ورأيت معه رسالة للحاتمى ، ذكر فيهـا ميشراته النبوية ، فاقتفيت أثر مناهجه المرضية ، وسميت الكراسة « بالدرر المنتثرات من الحضرات العندية ، فى غرر المبشرات بالذات المحمدية » .

بئر المخلوة البيرمية فى الحرم القدسي:

« وكنت قلت للأخ الحاج حسن حبى ، لما طلب فى الحرم أثراً ينتج الميرمتنى ، أن الخلوة (البيرمية) تحتاج إلى بئر صغير فانتدبت له طالباً من النصير التيسير ولما أحضرت ما يلزم من الأحجار والجير ، أمرت باحضار ، فعلة لأجل الحفير ، وألهمت أن أشرت بحفر محل معين بمعونة الخبير ، فحفر خندق ، وباشره من حضر من أجير ، فظهرت ثانى يوم مصفاة بئر قديم التعمير ، ثم عثرنا بعد ذلك بفضل القدير ، فتوفر علينا بوجدانه شىء كثير ، ورأينا ما دورته تزيد على الكأس[1] الشهير ، ورفعنا بناءه نحو ثمانية أذرع لجمع الماء النمير . ولما رآه شيخنا الشيخ محمد الخليلى ، قال هذه كرامة من غير نكير ، لفلان وعلامة تهوين وتيسير ، وإلا كان يمكنه أن يشير فى الحضير إلى غير هـذا المحل لاتساع كبير ، قلت ووقع لهذا التسهيل نظير عندنا فى الدار حال التعمير ، فلم نستر لأجـل الستارات الكبا شيئاً بقطمير ، واحتجنا إلى روزنة[2] فى المطبخ لأجل التنوير ، فقال البناء أين أحفر قلت هنا وتوكل على القدير ، فظهرت روزنة قديمة فعجب وقال هذا حال خطير ، قلت بل اتفاقية أبرزها التقدير .

وصول سنة (١١٤٤هـ) ، الزيارة الخليلية ، السنوية وظهور الطاعون بيبت القدسى :

« وعند ما دخل العيد الكبير وتمت بعدها عمارة البير ، بقى من لوازمه المعمارة ، وهى تحتاج إلى إتقان ومهارة ، فأحضرت لها ما يلزم ، ووافقنا عليها رجلا على المباشرة عزم ، ولما نوى العام المؤرخ على الرحيل ، ودخلت سنة (١١٤٤هـ) بتكبير وتهليل ، حضرنا بقية الشهر فى المسجد ، وتوجهنا غرة صفر الخير إلى زيارة على بن على ترنجى المير ، وكان حضرنا الأخ الشيخ رضوان الزادى والشيخ ابرهيم العرابى ، وسرنا معهم جملة إخوان منهم الأخ الشيخ مصطفى أسعد [اللقيمى] ، وكانت الحمى الربعية لم تفارق ، لأمر إلهى نوره بارق ، وبتنا فى المقر الشمويلى الأزه ، وقلت :

ألا أيها الطلاب سيروا إلى اللقا عساكم به تسقون كأساً مروقا

وتوجهنا على بنى حمار[1] ومنها إلى (سبطاره) التى تسن العرب حولها الغارة ، وجلسنا فيها مع الأخ اللقيمى نتذاكر بأنس يأتى بكل قربة خير . وكان الأخ المذكور أثر فيه برد البلاد فتغير مزاجه وفى (يازور) زاد ، وتوجه صحبة شريكه النجار إلى (يافا) ولحقناه فيها نتصافى ، ثم سرنا منها إلى المقام العليلى الندى ، وورد علينا فيها الأخ الحاج حسن القسلدى ، وبعض مضى أوقات الزيارة ، سبقنا الأخ اللقمى لوادى نابلس الفياح وتنقلنا إلى أن وصلنا (كوثر) والقلب مشتغل ، والفكر فيه بالحمى فتور ، وجاءنا الخبر أن الشيخ عبد الرحمن السمان جاء نابلس للزيارة القدسية وصحبته المنلا عباس تلميذ شيخنا المرحوم المنلا الياس المتوفى سادس عشر شعبان سنة (١١٣٨هـ) . ثم أن ورد علينا بمن معه (كور) ، وعدنا جميعاً إلى نابلس فى حبور ، وبعد ثلاثة أيام من الإقامة فيها ودعنا الأخ اللقيمى وبقية الأحباب وسرنا إلى (جماعين) . ورأى جامعها السمان فسر به وقال إنه وعهد واف لجامع فى قاف ، لكن ذلك كبير واسع وماؤه فيض له هتان . قلت له : أتدرى إمامه الذى فيه يصلى مغره يصان . قال : نعم ، رأيته والقوم كلهم له فى ذكر المقام . ثم عدنا للديار المقدسة ، وبقى خاطرنا عند الأخ اللقيمي ، وجاءنا الخبر بتوجهه إلى وطنه الصبيب (أى مصر) . وكان ورد البلاد العالم الفاضل المراد الشيخ عقيلة المكى الوطنى اليمنى الأصل والمولد ، يوم الخميس من شهر ربيع الأول الأنيس ، واجتمعت به فى منزله للسلام ، وحضرت درسه العام باستسلام ، وأخبر عن تأليفه الإحسان . ولما أوقفنى عليه قرظته :

يا راقياً لمدارج الإحسان أحسنت فى الإحسان بالإحسان

(النهاية فى العدد القادم)

أحمد سامح الخالدى

(١) هو بركة فى وسطه ما يشبه الكأس بين المسجد الأقصى والصخرة حيث يصب فيه الماء فى برك سليمان .

(٢) الروزنة هى النافذة المطلة على الطريق وقد علاها قضبان من الخشب أو الحديد لمنع التكشف .

(١) فضاء يقع شرقى الرملة قاعدته بلدة « نعلين » .